الإسلام وحياتنا العامة

للأستاذ محمود عبد العزيز بحرم

إن أمتنا أمة مسلمة . غير أنها لا تستوحي الإسلام في تصرفاتها ونظرتها للحياة وأحداثها . ولا ترى أن من الخير الذي يعود عليها بأجزل النفع أن تنظر إلى الحياة من خلال الفكرة الإسلامية . وإن كثيرا من الكتاب يخرجون علينا بأفكار مختلفة ، منهم من يرى أن حياتنا يجب أن تنهض على الإسلام ، ومنهم من يرى أنه يجب أن ننحى الإسلام عن حياتنا هذه ، وأن نشرع فيها على أسلوب جديد يوافق روح العصر ، ويقطع كل ما يصلنا بهذا الدين العتيق

والعجيب أن أكثر هذه الكتابات التي تنادي بفصل ديننا عن حياتنا إنما هي بأقلام كتاب مسلمين . والمفروض أن المسلم يكون أحرص على دينه ، وأغير عليه من أي إنسان آخر ، حتى يؤدي واجبه نحو نفسه ، ووطنه ، وربه ، على خير الوجوه وأكملها . وهؤلاء الكتاب بعملهم هذا ينهجون نهج أقوام آخرين لا تربطهم بالدين الإسلامي رابطة ، لا يكادون يهادنونه ويدعونه يرسم صورة للحياة الناضجة القويمة ، ويقفون له بالمرصاد ينتقصونه ، ويسفهونه ، ويزرون به ، وينعون عليه أحكامه وآدابه وتوجيهاته

وإذا استوحى المسلم غير الإسلام فهو وغير المسلم سواء . وهو حرب على دينه . وهو عون لأعدائه عليه . وهو دخيل علينا لا يجوز أن نركن إليه ، ولا نأتمنه ، ولا نهادنه . وعلينا أن نحذره ونتعرف على نياته ودخائله لأنه أخطر علينا من العدو الألد والهاجم الصريح

ليس ما نشكوه في هذه الحرب هو الأجانب وحدهم ، بل نشكو المسلمين أيضا ! هؤلاء الذين يعملون لهدف غير هدفنا ، ويسعون لمثل غير مثلنا ، ويبنون حياة لا تتفق وحياتنا . وبعد ذلك تتخذ أقوالهم وأعمالهم حجة على الإسلام إن لم تتخذ على أنها الفكرة الأسلامية في ذاتها . ونعاني من وراء هذا العسف الغليظ والضر الأليم . وننفق من قوانا في جبهتين ، إحداهما داخلية ، والأخرى خارجية

هذا الإسلام بعيد عنا . وكلما نادينا بالاقتراب منه ، والاسترواح في ظله ، والاستقاء من نبعه ، خرجت علينا الذئاب العاوية لتقتنص منا الفئم الشاردة ، فتفرق وحدتنا ، وتضرب في صفوفنا ، وتزعزع إيماننا برسالتنا ودينا وأهدافنا المثيرة الحقة . ومن هنا يظل الإسلام بعيدا عنا أطول مدة ممكنة ، حتى يمتص المستعمرون وأعوانهم الثمالة الباقية من ذخائرنا ، ثم بعد ذلك نكون جسدا هامدا لا خير فيه

إذا أردنا أن يكون الإسلام أسلوب حياتنا فعلى كل مسلم أن يكون صاحب دعوة وصاحب رسالة . عليه أن يعتقد اعتقادا جازما أن الواجب لا يتم إلا به ، فعليه جزء منه ، وعليه أن يبذل في سبيله ، لا فرق بين رجل دين وغيره . فالإسلام ، والعمل له ، والإيمان به ، دعوة كل مسلم ورسالته . والمسلمون جميعا مسئولون عنه لا فرق بين إنسان وإنسان . أما هذا الكلام المملول في مسؤولية المسلمين فليس من الاسلام في شيء . ليس في الاسلام رجل دين ورجل دنيا ، ولا رجل مسؤول ورجل غير مسئول ، ولا فرد يعمل وآخر يعتمد على عمل غيره ، إذ كل المسلمين في نظر الاسلام سواء ، وهم مكلفون العمل له والإيمان به ، لا يغني بعضهم عن بعض شيئا

إذا أردنا أن يكون الاسلام أسلوب حياتنا فعلى كل مسلم أن يهتدي به في حياته ، فيحققه في كل عمل وقول ، ويتجه إلى وجهته ، ويشيعه في حياته العامة والخاصة ، ويعتنقه مبدأ لا يحيد عنه ، ويشارك به فيما يرى من رأي أو يرغب من رغبة

على كل مسلم أن يجعل حياته إسلامية ، وأن يفيض من خيرها وبرها على الوجود من حوله ، وأن يحمل غيره على ما يحبه له ولنفسه وللناس جميعا ، من خير لا ينقطع ، وبركة زاكية ، وحب شامل ، وإخلاص عميق في كل ميادين الحياة ، في التجارة والزراعة ، في التعليم والسياسة ، في الاجتماع والاقتصاد ، في خاصة الرجل وخاصة المرأة وفي المشترك بينهما

ليس في هذا مشقة على أحد . فكل إنسان يستطيع أن يرسم حياته بالطريقة التي تروقه وتحلو له . وحياة الفرد ليست غير تحقيق عملي لعواطفه وأفكاره . وحوافز النفس وخلجات

الضمير هي أمهات جلائل الأحداث . وتاريخ الأبطال والعظماء ماهو إلا انعكاسات القلوب الكبيرة والنفوس النبيلة

إننا نعمى على الحكومات موقفها من الإسلام . والواجب أن نعمى على أنفسنا مثل ماننعاه على هذه الحكومات ، لأننا نستطيع أن نعمل الكثير لأنفسنا وللاسلام من غير أن نلجأ إلى حكومة نسألها العون ونستجديها المعاونة ، حياتنا المنزلية ، وحياتنا مع أصدقائنا ، وحياتنا في عملنا ، وسلوكنا مع الناس عامة ، وحياتنا الذاتية التي لا يطلع عليها إنسان — كل هذه مجالات مختلفة متفاوتة ، نستطيع أن نحياها صحيحة وأن نبنيها إسلامية . وذلك متى ماتصورنا حياة سهلة سائغة سمحة واتخذنا هذا التصور هدفا لنا ومثالا نسعى إليه

وقد قرأت في مجلة الثقافة مقالا لكاتب مسلم ، هو الأستاذ محمد عبد الله عنان . وقد عنون الكاتب موضوعه بهذا العنوان « المرأة والحقوق الدستورية ، لامحل للاحتكام بشأنها إلى الدين » ومن هذا العنوان وحده نستطيع أن نلمس حرص الكاتب على تخلي الدين عن حياتنا العامة . مع أنه يجب أن تحتكم إلى الفكرة الإسلامية في كل شؤوننا العامة والخاصة ، شؤون الفرد والجماعة ، شؤون الرجال والنساء ، شؤون الأطفال والبالغين ، في عملنا السياسي أو الاجتماعي أو التهذيبي أو الذاتي ، في سلوكنا الظاهر وسلوكنا الخفي . نحتكم إلى الفكرة الإسلامية في كل هذا حتى نتعرف على مواضع الرشاد ومواضع الزيغ في سلوكنا ، وإذا ماتادى إنسان يمثل هذه الدعوة التي نادى بها الأستاذ عنان فإننا نعتبره أحد رجلين : إما أن يكون رجلا لايعرف من أمر دينه الكثير ، وإما أن يكون رجلا يعين غيرنا عليها . وهو على كلا الحالين غير محمود ولا مشكور

يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان في مقاله هذا « ... ولا محل على الإطلاق أن يتخذ الدين أساسا لمثل هذا الموضوع ، سواء لتوكيد التحريم أو الإباحة ، وإذا كانت مصر دولة إسلامية فليس معنى هذا أنها دولة دينية ، أو بعبارة أخرى أنها دولة تطبق أحكام الدين في سائر نواحي حياتها العامة . فالنظم الأساسية والقوانين المدنية والجنائية المصرية كلها نظم وقوانين تطبعها الصفة اللادينية . ولا يطبق في مصر شيء من أحكام الشريعة الاسلامية في العبادات أو المعاملات أو الحدود بصورة جبرية ، فلا تقطع يد السارق ، ولا يرجم الزاني ، ولا يعاقب شارب الخمر أو تارك الصلاة أو مفطر رمضان ، وغير ذلك ، ولا يطبق منها إلا ما أمكن تطبيقه من شؤون الزواج والأسرة والميراث والوقف (القضاء الشرعي) وحتى هذا يعتبر قضاء استثنائيا بالنسبة للقضاء الوطني العام »

ويستطرد الكاتب قائلا « فإذا ماتقرر ذلك ، وهو أن النظم والقوانين المصرية هي نظم مدنية لادينية ، لأنها هي النظم والقوانين التي توافق روح العصر ، ومقتضيات الحياة الاجتماعية الحديثة ، فلا محل إذا لأن نجعل الدين حكما في مسائل لا علاقة لها بالدين ولا تمس العقيدة الدينية ذاتها ، ولا محل إذا لنرجع بمطالب المرأة السياسية والاجتماعية إلى أحكام الدين مادامت هذه المطالب لاشأن لها بالعقيدة الدينية ... »

ونخرج من هذا الاقتباس بثلاث نقاط هامة مؤلمة ومؤسفة في نفس الوقت :

مصر دولة مسلمة ولكنها لادينية ، فدينها الرسمي هو الإسلام ، غير أنها لاتطبق أحكامه في حياتها العامة . والنظم والقوانين المصرية مدنية موافقة لروح العصر ومقتضيات الحياة الاجتماعية الحديثة . ومعنى هذا أن الدين وأحكامه لايوافق روح العصر ومقتضيات الحياة الاجتماعية الحديثة

أن الدين قد ضاق مجاله ، ولم نطبق منه إلا ماأمكن تطبيقه وهو شيء يسير في شؤون الزواج والأسرة والميراث والوقف ، بحيث أصبحت هذه الأحكام اليسيرة قضاء استثنائيا بالنسبة للقضاء الوطني العام

يمثل هذا الأسلوب في الكتابة والتفكير يتناول بعض الكتاب الحديث من دينهم وحياتهم العامة . وهم يخاطبون ما يرونه في واقع حياتنا بآرائهم الخاصة ونظرياتهم في الإسلام وصلاحيته . وإذا كانت حياتنا قد انحسر ظل الإسلام عنها في كثير من نواحيها ، فليس معنى هذا أن ندع الأمور تجري إلى غايتها المشئومة ، بل علينا أن نعرف مانحن فيه وما نطمح إليه ، والأسباب التي توصلنا إلى ما نتمنى ، والأسباب التي أدت بنا إلى ما نحن فيه الآن ، وأن نقرن ذلك كله بما كان لنا من ماض زاخر مجيد والأسباب التي دفعت إليه — كل ذلك لنستخلص

العبرة التى تقوم على ضوئها أسـلوب حياتنا الراهنة ، ونعالج مشاكلنا المعقدة ، وننهض من كبوتنا السياسية التى لانجد منها مقيلا

إن الأمم الغربية الاستعمارية تنتفض فزعاً كلما فكرنا فى ديننا وفى إخراجه إلى مجال الوجود العملى . والسبب فى هـذا ليس خافيا على أحد . إذ أن هذه الأمم الغربية على يقين راسخ من أن ديننا ينظم حياتنا ، ويهذب نفوسنا ، ويبعث الكامن فينا من القوة الخفية ، ويوحد وجهتنا ، ويبلغنا رشدنا . وإذا كان أمرنا كذلك ، فإنها الحرب على الاستعمار والاستغلال والفساد ، وإنه البعث الجديد الذى ننشط منه إلى قيادة العالم وصدارة الأمم ، وحينئذ لا يبقى لأمم الغرب سبب واحد تطمئن إليه ، وتعتمد عليه ، فى تثبيت أقدامها فى أنحاء العالم الإســـلامى لاستغلاله وتســـخيره

على أن الغريب حقا هو فزع بعض المسـلمين من تطبيق مبادئ الدين . ونحن لاندرى علة لفزعهم هذا . هل نقول إنهم عملاء للمستعمرين ؟ هل نقول إنهم يجهلون من أحكام دينهم مالا يصح أن يجهلوه ؟ هل نقول إن معين ثقافتهم الذى استقوا منه يحارب الإسلام فى خفية ، ويعكر صفوه ، ويطامر موارده النقية ؟ إنهم على أى حال يعملون غير ما نعمل ، ويشخصون إلى غير أفقنا

مثل واحد بسيط للدلالة على لون التفكير اللاديني الذى يسيطر على بعض المسـلمين ، وهو فى الموضوع الذى أشرنا إليه من قبل واقتبسنا فقرات منه . إن الكاتب المسلم يستوحى دينه فى إعطاء المرأة حقوقا سياسية أو غيرها ، ويرجع إلى أحكامه يستفتيها ، وعليه أن يلتزم ما تفتيه به هـذه الأحكام ، فإن أفتته بالإباحة فهى الإباحة ، وإلا فالتحريم الذى لاوجه فيه لجدل بعد ذلك . والكاتب اللادينى ، المسلم رسميا ، اللادينى عمليا ، يسارع إلى أمم الغرب يسألها ماذا فعلت ؟ وكيف وصلت إلى ماوصلت إليه ؟ ومن الذى أمامها ؟ وعلى خطوة أوخطوتين أوخطوات ؟ وهناك ! عند تقاليد هـذه الأمم ، وميراثها ، وشرائعها ، يجد الجواب الشافى الذى لايحس حرجا فى الأخذ به والاعتماد عليه !

« ففى إنجلترا لم تنل المرأة حقوقها الانتخابية لأول مرة إلا فى سنة ١٩١٨ ونالتها عندئذ جزئية ، محدودة ، ولم تنلها كاملة إلا فى سنة ١٩٢٨ . وفى أمريكا لم تمنح هذه الحقوق إلا فى سنة ١٩٢٠ ، وبعد محاولات عديدة متوالية شمـــلت كل ولاية عنفردها ... . والمرأة لم تحصل على حقوقها الدستورية فى بعض الدول الأوربية العريقة مثل فرنسا وإيطاليا والنمسا إلا بعد الحرب العالمية الثانية . ولم تحصل عليها فى بلجيكا إلا فى سنة ١٩٤٨ ، وفى ألمانيا الغربية فى سنة ١٩٤٩ »

وعلى هذا فإنه لايجوز أن تحرم المرأة الحقوق السياسية مادامت هذه الدول الغربية العريقة قد أعطت المرأة هـذه الحقوق . يجب أن تعطى هـذه الحقوق ، دون نظر إلى ما يقوله ديننا فى هذا الموضوع ، لأن أحكامه عتيقة لاتوافق مقتضيات العصر ولا روح التقدم . المهم أن نكون كهذه الأمم التى قلدناها ، وقصصنا آثارها ، وأسلمنا زمامنا لآدابها وتقاليدها وروحها ... أما أثر هذا التقليد فينا . . . وأما وقوعنا فى قبضة هـذه الأمم تستغلنا . . . وأما انهيارنا الاجتماعى والاقتصادى والسياسى بسبب تشربنا روح هذه الأمم وآدابها — كل هذا ليس لهعندنا كبير أثر . وهو حقيق أن ينسى مادمنا ندور فى فلك هذه الأمم ولو على حساب كرامتنا ، وتقاليدنا ، وديننا ، وصالحنا السياسى والاقتصادى والاجتماعى !

إن حياتنا بنت تصورنا وتفكيرنا . فإذا كان تصورنا إسلاميا ، كانت حياتنا إسلامية . وإذا كنا لادينيين فى التصور والتفكير كانت حياتنا لادينية . وعلينا الآن أن نختار ، إما أن نتجه إلى الله الذى منحنا دستورا لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإما أن نتجه إلى هذه الدول (العريقة !) التى أذاقتنا الذل ، وألبستنا الهوان ، وباعتنا فى أسواق النخاسة الدولية — نعمل بدساتيرها ، ونحتكم إلى قوانينها

محمود عبد العزيز محرم